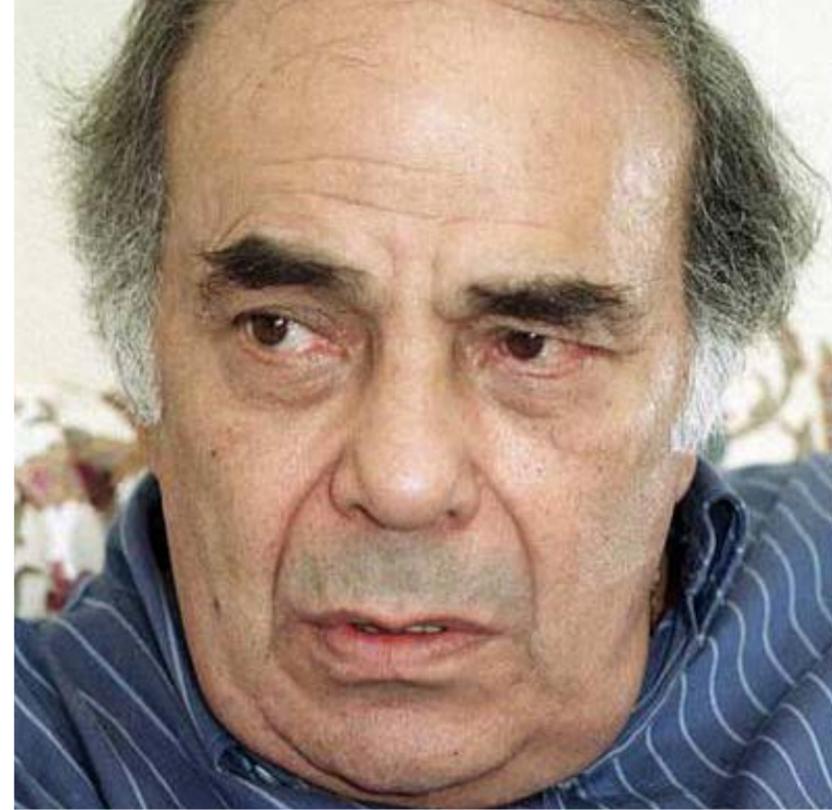


ذكرى

الشهر الماضي، مرت الذكرى 11 على رحيل الكبير منصور الرحباني (1925 - 2009). منذ ظهورهما الرسمي في الخمسينات، شكل الاخوان رحباني هوية فنية وحضارية لبنانية في حقبة تسيّد فيه الفن المصري المشهد. وضعا اسس المسرح الغنائي، وكانا رائدين في الكثير من المجالات. مع رحيل عاصي، ظل منصور وحيدا غريبا، حمل على كتفيه هذا الارث وواصل المسيرة. ترى، ماذا كان ليقول اليوم في خضم ما تشهده الساحة اللبنانية؟



الخالد منصور الرحباني.

في الذكرى الـ 11 لغائب لا يغيب

منصور... الشاعر الذي رأى

في 13 كانون الثاني 2009 رحل منصور الرحباني (1925)، ليلتحق بأخيه الأكبر عاصي (1923 - 1986)، وتبلغ الاسطورة كمالها. الاخوان رحباني، دائما وابدا، مهما حاول النقاد كما الفضوليون فصل انتاج منصور عن انتاج عاصي، وسبر اغوار هذا اللغز الفني الذي يشكل جزءا من سحر الاسطورة. مع ذلك، اعطانا عاصي الخيط في حوار اجرته معه مجلة "الاحد" في شباط 1956. يومها، قال: "كل واحد منا ينظم ويلحن. اعمال منصور عادة مشغولة اكثر وفيها عمق. اما اعصابي فتمتاز بالبساطة. انا اسرع في التلحين والنظم. اما منصور فاعمق واكثر تأملا مني. انا حكوي، ومنصور متأمل. انا اتصيد الكلمات الحلوة من الناس البسطاء. انا قليل المطالعة، واستغل كلام زملائي عن مطالعاتهم، فانصت اليها جيدا، ثم اخذها عنهم. انا صياد افكار". من جهته، قال منصور في حديث نشر في مجلة "الكواكب" المصرية: "انا اكتب الاعمق، وعاصي يكتب الاشْف والاحسّ والاكثر شعبية".

لعل الدليل الأكبر على كلام منصور الرحباني هو انتاجاته التي قدمها بعد رحيل شقيقه، هو المطالع العاشق لكتب الفلسفة والتاريخ والدين، والمهجوس بالماورائيات والاستئلة الكبيرة على رأسها الموت. نتذكر اعماله المنفردة بعد



اتعب السنين ولم تتعبه.

باسم المدرسة الرحبانية، الا انه ما كان للقصة ان تروى، ولا القمر ان يكتمل من دون عاصي ومنصور. هذا ما تنبه اليه الشقيقان باكرا بالسليقة.

في كتاب "طريق النحل" للشاعر هنري زغيب، ينقل عن منصور الرحباني وطفولة الاخبر في انطلياس، قوله: "حكايتنا عاصي وانا، قصة شقيقين كأنهما توأمان ريبا في ظل الاسئلة الكبيرة، وطرحا الاسئلة الكثيرة، وقالوا بالكلمة والنوطة ما اعتقدا انه بعض الجواب. لكنهما لم يقطعا اي جواب". يضيف في مكان اخر: "كنا شديدي الالتصاق واحدا بالآخر، لم نكن نفترق، لم نكن ننفصل. لذلك منذ تلك الايام الاولى، درجنا نسمع تسمية "عاصي ومنصور". كنا معا. دائما معا. ليلا ونهارا معا. هكذا امضينا حياتنا في ما بعد".

لم تنفصل هذه التوأمة الا مع رحيل عاصي منتصف الثمانينات، وبعد ارساء اسس الريادة مع اطلاقهما المسرح الغنائي بالمفهوم الحديث، وخلق ذلك المزيج بين الحضارتين الشرقية والغربية منذ الخمسينات، فاضطر منصور الى ان يواصل الرحلة من دونه. الا انه في جميع اعماله التي اتخذت منحى ضخما هذه المرة على حد قول ابنه اسامة الرحباني، ظل طيف الاخوين حاضرا في التيمات والمواضيع والقضايا والهيموم المطروحة.

انشغل المسرح الرحباني بالانسان كهدف اول، وبالحرية والسلام والمواطنة وحب الوطن والالتقاء اليه شعبا وحضارة وتراثا، ونصرة المسحوقين والمظلومين في الارض، ونبذ النزاعات والعداوات والانفتاح والمساواة والعدالة وقبول الاخر والالتقاء الى الانسانية بمعناها الواسع والكوني... نتذكر هنا مطلع اغنية "بصباح الالف الثالث" للراحل منصور، حين يقول: "بصباح الالف الثالث/ بعد في جوع/ في اطفال مشردين وبكي ودموع/ خلتنا ننهي الحروب يا دول القوية/ لا للحرب لا للقهرة لا للعنصرية/ انت مين انا ما بسأل/ لكن حزنك قلبي مين/ ولا يعرف اي لون واي دين/ يعرف انك خيبي بالانسانية".

بهذه الاغنية، وجه منصور صفة الى ضمير العالم الشاهد على مأس انسانية من صنع يديه. مع ذلك، يمكن الوقوف على اختلافات برزت في مسرحيات منصور بعد رحيل عاصي، على

نقطة على السطر

منصور... صانع وجدان الشعب

غالبا ما نردد في زمن الازمات، منذ ايام الحرب الاهلية السيئة الذكر، ان لبنان، قد تتزعزع اساساته، وتتفاقم ازماته، وتتهدد اسس وجوده، لكن صرحا واحدا يبقى ثابتا لا يتزعزع، ولا تقوى عليه الويلات والزلازل، والازمات والحروب: انه صوت فيروز الذي يبقى يجمع اللبنانيين، ويوحدهم. صوت هو مثابة روح الامة، وهويتها العميقة، واعتزازها بنفسها، واصرارها على تجاوز العقبات، ورهانها على المستقبل. هذا هو صوت فيروز... وحين نقول صوت فيروز، نقصد من خلفه التراث الموسيقي الشعري الغنائي الذي حملته وجسده. حين نقول فيروز، نقصد المؤسسة الرحبانية. كل صورة شعرية، كل كلمة مستقاة من المخزون الشعبي، كل نوطة، كل حكاية، خرجت من المختبر السري، من المحترف السحري للثنائي عاصي ومنصور.

هذا التراث الذي صقل ثقافتنا، وشكل وعينا، ونسج ذاكرتنا الجماعية والحميمة، تفتقت عنه موهبة الاخوين رحباني ضمن معادلة غامضة لم يسر اغوارها احد بشكل واف حتى الان. من كان يفعل ماذا، ضمن عملية الخلق والابداع، المعقدة اساسا؟ ربما كان كثيرون يبننا، لا يريدون ان يعرفوا، ويتمسكون بالاسطورة كسر من اسرار الخلق.

هكذا ترك لنا الثلاثي فيروز وعاصي ومنصور روائع ملتزمة بتاريخنا البعيد والقريب، من "فخر الدين" الى "جبال الصوان"، ومن "يعيش يعيش" الى "المحطة"... حين نعود اليوم الى هذه الروائع، لا نفعل بحكم الحنين الى الزمن الجميل فقط، بل لاننا لا نكد بسهولة في تاريخنا الفني والفكري، اثارا اكثر بلاغة في التعبير عن احلام شعب، وسخرية شعب، ومشروع بناء امة قوية ناهضة حضارية، متبعة على عرش التاريخ. من هذا المنطلق ايضا، نعاود اليوم الانحناء امام قامته كبرى، منفردة، مثل منصور الرحباني في ذكراه. النقاد والباحثون والمتذوقون يعرفون بحكم المتابعة الدقيقة، ما ابدعه منصور شاعرا، ما تمخض عنه خياله السردى، وقدرته على خلق الشخصيات، التاريخية والهامشية، وكتابة الحوارات التي تحفر في الذاكرة. كلنا نعرف المامه بالادب والحضارة والتاريخ، وقدرته على تطويع كل ذلك ضمن قالب درامي. ينطبق ذلك على مساهماته ضمن اعمال "الاخوين"، ثم بعد رحيل عاصي، في اعماله هو مع ابناؤه غدي ومروان واسامة، ورثة هذا التراث العريق.

منصور الرحباني مبدع فذ، حلم بالمطلق. فكانت اللغة، والقصة، والموسيقى، طريقا الى هذا المطلق. اليوم والشارع اللبناني يغلي بأمال الشباب، واحتمالات اعادة تأسيس البلد الذي نحلم به، نتطلع الى تركة منصور، ونغرف من رؤياه، الشعرية، المثالية، بعضا من ملامح هذا الوطن المنشود.

بعين الرؤيوي الحالم تجاوز منصور الرحباني الواقع، او لنقل تحدى "وطن الازمات"، ليأخذنا الى "الوطن المنشود"، وطن الرغبات والاحلام. لكنه لم يكن اسير الاسطورة يوما، لم يهرب اليه خوفا من مواجهة الواقع، ولم يزور الواقع او يحاول اختزاله والالتفاف عليه. انطلق منه لبني وطننا من القصائد والاغنيات، فاذا بالحلم الطالع من اعماله يبدو واقعا جدا.

بل نقول اليوم، كتحية الى العملاق في ذكراه، ان الرؤيا الفنية التي تنضح من مسرحيات وقصائد وحوارات واغنيات منصور، تصلح برنامجا سياسيا وطنيا لنا. فهل يتلقفها الجيل الجديد الذي يحتل الساحات، ويأخذها نبراسا وقدوة ومثالا؟



المؤلف الموسيقي اسامة الرحباني.

ليس صحيحا. عاصي مؤلف موسيقي وملحن وشاعر ومسرحي ومخرج مسرحي، ومنصور كذلك الامر. لم يكونا انايين، وهذا يصعب رؤيته في اي مكان في العالم. حتى انا واخوتي لا يمكننا ان نكون مثلهما، فكل واحد منا يبرز العمل الذي وقّعه. هما لم يكونا هكذا. نحن نعرف قوة منصور الكبيرة وديبلوماسيته التي كانت تتميز عن عاصي. الاخير كان عفويا وانفعاليا، ويحب اثاره الجدل كثيرا، فيما منصور كان مقتنعا بأن الجدل لا يوصل الى مكان. بعد رحيل عاصي، انجز منصور حوالي 12 مسرحية من اجمل ما كتب من "صيف 840" الى "الوصية" و"اخر ايام سقراط" و"قام في اليوم الثالث" وصولا الى "حكم الريان" التي كانت رؤيوية تنبأت بالاحداث قبل وقوعها. صار توجه منصور بعد رحيل عاصي تقديم الاعمال الكبيرة والضخمة، ولو انه انجز بعض الاغنيات ايضا. العالم العربي تهمة الاغنية احيانا اكثر من اي شيء اخر، بينما اتجاهات منصور فكرية وثقافية واكبر بكثير. اضع الى ذلك، انه لو كان عاصي يعمل وحده، فهذا النتاج الرحباني الضخم الذي يتضمن شعرا وموسيقى وتوزيعا اوركستاليا ومسرحا ومدرسة في الصوت وفي الفكر، يمكن ان ينجزه شخص واحد؟ مستحيل، والامر ينطبق ايضا على منصور. كان الاثنان يتأثران ويؤثران ببعضهما كما لم يحصل مع اي شخص اخر، كانا مقتنعين ببعضهما، وقد اثرا بالكثير من الناس من شعراء كبار تأثرا بهم في بدايتهم، قبل ان يتأثر هؤلاء الشعراء بهما.

مع ابي الذي كان حنوننا وحزينا وعاش مأساة كبيرة في حياته هو وعاصي، كان عبقريا ومفكرا واسطورة حية يجعلك تهابه فعلا. كان ذا حكمة شاسعة وعميقة في كل شيء يقوله، وايضا متواضعا بشكل مرعب. كان لا يؤمن بالجدل والنقاش كثيرا، بل آمن بأن الإبداع يكون فريدا، ولو استمع هو وعاصي الى كل الاراء ووجهات النظر، لما قدما كل هذا الإبداع والتطور والريادة.

لطالما حاول النقاد والمهتمون فصل نتاج الاخوين، لمعرفة ما ابدعه منصور وما ابدعه عاصي. في رأيك هل سيبقى هذا اللغز جزءا من اسطورة الاخوين؟
□ في خصوص محاولات بعض المنتدكين لفصل هذا الارث، ما صنعه عاصي ومنصور هو واحد. صحيح انه يصعب على الناس رؤية شخصين اتحدا ببعضهما بهذه الحلولية الكاملة. عاشا مع بعضهما منذ سنة 1925، اي منذ ولادة منصور حتى تاريخ وفاة عاصي اي عام 1986. عاشا كل ايامهما مع بعض، اكثر مما عاشا مع زوجتهما وعائلتهما لان منذ الصباح حتى المساء كانا معا. كانا يفهمان بعضهما من لفظة واحدة. حين اصيب عاصي في ايلول 1972 بانفجار كبير اثر على الكتابة والقراءة وغيرهما، خاف الجميع على المدرسة الرحبانية، لكنها لم تتأثر، بل اكملت، واستمر عاصي ايضا. هناك بعض ممن يسعون الى المحاباة والمبالاة يقولون: منصور المؤلف الموسيقي والشاعر والمفكر، وعاصي المحرض والملحن. وهذا

بيننا اليوم، لكان قلبه وعينه على الثورة، لكنه طبعا يعرف ان الثورة لا تحصل بلا دم. فالثورة العبارة عن احتجاجات فقط ستذوب حتما في بحر الطائفية والتحزبات السائدة في لبنان.

■ في ذكرى رحيله، هل هناك اعمال للراحل غير معروفة او غير منشورة بعد؟

□ هناك بعض القصائد المكتوبة التي قد ننشرها في كتاب، عدا انه هناك كتاب "اولى القصائد" الذي ضم قصائده الاولى التي كتبها وهو في العاشرة وال 11 من عمره، اضافة الى مسرحية صغيرة واشياء اخرى نشرت سابقا. هناك ايضا مواضع وملخصات مسرحية (سينوبسيس) كثيرة، كما هناك مسرحية غير كاملة، الى جانب المؤلفات الموسيقية والقصائد وغيرها. مرات استعمل بعض الاشياء التي اشتغلها معه في الماضي، لتغنيها هبة طوجي. طبعا، هناك ايضا اشياء اخرى من الكنز الرحباني، لكننا لا نهمسها نحن. كان دوما يردد مقولة مفادها بأن المسرحية التي لا تقدم، لم تحدث من الاساس، ولم تصبح واقعا، لذا تبقى على الورق. اذا لم تحدث، يعني انها لا تزال في الحلم، وربما لا يكون هو راضيا تماما عنها، غير انه حين تقدم على المسرح لا تعود تعني له شيئا.

■ في احد حواراته قال انه يحب العزلة للكتابة والتلحين. كيف تتذكر عاداته ويومياته؟ هلا اخبرتنا قليلا عن ذكرياتك عنه؟

□ منصور كان يكتفي فقط بغرفة صغيرة، يكتب ويقرأ فيها من الصباح حتى المساء. قراءاته كانت متعددة وواسعة من الفلسفة والدين والمسرح والشعر والادب والسياسة والتاريخ، وكل انواع القصص. لكنه كان متبحرا في الديانات والفلسفة. خلال سنواته العشرين الاخيرة، لم يكن يخرج كثيرا، ولم تكن مشاهدة التلفزيون تعني له شيئا. كانت الكتابة والقراءة اهم صديق له. كان سريعا جدا في الاثين. طقوسه تبدأ بالعمل من الصباح حتى الظهر، فيتغدى ويأخذ قيلولة قصيرة، ثم يعود الى الكتابة ويتابع القليل من الاخبار رغم عدم سروره بالاستماع اليها. لم يكن يرى ان رجال الدولة على مستوى وطن وعلى مستوى رؤيوي، لا بل يغرقون في المنظومة السائدة وفي مصالحهم. كان يهرب الى المناظر الطبيعية. اذكر انه دائما في الشتوة الاولى، كان يفتح الردهة، ويتفرج على المطر الذي كان يلهمه افكاره. عبقريته تكمن في انه كان يعتقد بأن العبقرية ليست فقط ما اعطاك اياه الله، بل يجب ان تصنعها وتشغل عليها. عدا انني عشت

اسامة الرحباني: عاش مأساة كبيرة في حياته

■ منذ 33 عاما، قال منصور الرحباني خلال عرض "صيف 840" جملة استحضرها كثيرون على السوشال ميديا في خضم ما تشهده الساحة اللبنانية اليوم: "الشعب سينتصر لاننا نحن الاكثوية ونحن الوطن". في رأيك لو كان منصور بيننا، كيف كان سيوصف ما تشهده الساحة اللبنانية من احتجاجات؟

□ لا شك في انها حتمية الاشياء، والحس الانساني سيقودك الى الاحساس بأن ما يحصل اليوم تأخر كثيرا. في النهاية، ما عاد المواطن يحتفل نفسيا معنويا واقتصاديا وامنيا، كما لم يعد يحتمل هذه الفوضى العارمة وانعدام المسؤولية من الحكام كافة منذ اربعين سنة لغاية اليوم. لا شك في ان هذه الاشياء تحدث عنها منصور الذي كان يملك دوما تلك الرؤية الواسعة والكبيرة نظرا الى قراءته كمفكر عظيم وعبقري للماضي ومراقبته للأشخاص، خصوصا هو وعاصي. راقبا الناس، هما اللذان خرجا من الفقر والمأساة. كان يقول لي ان من ليس لديه عقدة ما، لن يستطيع اثبات شيء في حياته لأن الانسان المترف والمتراح، ليس لديه شيء لاثباته او دافع للتحسن ولا لايداع شيء. لذا، فهمومهما كانت هموم الشعب، وهموم عائلتهما وامهما. كانا شخصين مسؤولين عن عائلة من تسعة اشخاص، ربياهم، وكان عاصي فوق السن بعام فقط، ومنصور تحت السن اضطر الى العمل والكدح في هذا العمر المبكر. اذا، بالنسبة الى منصور، هو كان يعتقد بأن ما سيجري هو حتمي، اذ لا يمكن حبس المياه التي ستفجر في النهاية. هؤلاء الناس انفجروا لسبب معين. لكن لو كان منصور ايضا معنا، لكان نبههم من دخول اطراف على الخط واستغلالهم، لأن المنظومة في لبنان ذات قبضة قوية. المنظومة متشابكة والدولة تسيطر على الامور كلها. لذا، كان منصور متأكدا من ان هذا العهد الذي قطعه اللبنانيون على انفسهم بين الاقطاع والعائلات والطوائف والمذاهب والدين هو المسيطر والمتحكم بلبنان. من هنا كانت كلمته الشهيرة في مسرحية "عودة الفينيق" بأن تعاسة لبنان موقعه، وسعادته موقعه. فعين الكل عليه، والكل طامعون به. في الوقت عينه، نعاني من خصائص سلبية مثل الفردية وعدم التفكير كجماعة بشكل جيد. الاكيد انه لو كان

الشعر وطبيعته. لا اقصد الطبيعة الخارجية، بل طبيعة الاحاسيس والاتقاطات فور انبثاقها. وحين تسأله من انت يا منصور الرحباني؟ يجيبك معرفا نفسه بأسلوب فلسفي رائع، فيقول: انا حيث انام، تستيقظ الاحلام، وانا الان نائمكم". كتب منصور الرحباني قصائد محملة بالبعد الفلسفي وبكثيرة عميق بمعنى الحياة، هو الذي كان مأخوذا بفكرة الموت. في حوار اجراه معه ميشال معيكي في ايار 1989 في بيته في انطلياس، قال منصور: "انا اعيش غربة فظيعة بين الناس واولادي وعائلتي. انا هكذا، الانسان ايضا في غربة في هذا الكون. هو غريب عابر من الولادة حتى الموت. الانسان لا يستقر الا في الموت". قبل 11 عاما، مات منصور. التحق بالشهيد، او النجوم، او الكواكب... رحل لكنه لا يمضي، فالمدعون يلتحقون بالاسطورة.

س.م.



منصور بوليس البلدية وعاصي يتوسطهما صهرهما الشاعر عبدالله بشارة الخوري (عبدالله الاخطل).



منصور يتوسط عاصي والياس.



الاثنان واحد.